

تطور الحساسية الأندلسية وأثرها في العلاقات الأدبية
بين الأندلس والمشرق في عهد المرابطين من خلال كتاب :
« احكام صنعة الكلام » للكلاعي

بقلم : سليم ريسان

العلاقات الثقافية بين الأندلس والمشرق قديمة تطورت عبر العصور وهي
قد خضعت لقانون الأخذ والعطاء القاضي بأن اليد العليا خير من اليد السفلى .
فكان للمشرق العربي على الأندلس فضل العطاء طوال عصور ازدهاره الثقافي
لكن الكثير من الأندلسيين ، وخاصة إنطلاقاً من أواخر القرن الثالث الهجري ،
تحركت في نفوسهم حمية المفاخرة والمنافرة فأنفوا الرضا بهذه المنزلة وتحرك
في نفوسهم الشعور بالذاتية الأندلسية فتمردوا على زعامة المشاركة وكان لذلك
عوامل تاريخية : سياسية وحضارية وثقافية لونت هذه العلاقات وإن كانت
في جوهرها - وفي نظر المشاركة والكثير من الأندلسيين - قائمة على معادلة
لم تتغير طوال العصور : الثقافة المشرقية هي الأصل وما سواها ليس إلا فرعاً .
فماذا بقي للأندلسيين ؟ وهل غادر الشعراء من متردم ؟

لكن بعض الأندلسيين - من ابن عبد ربه إلى ابن حزم فابن شهيد فابن
بسام والشقندي وابن سعيد وغيرهم كثير - كان همهم تنزيل الثقافة الأندلسية

المنزلة الفضلى من هذه المعادلة ، رغم ما في ذلك من جدلية مستحيلة حسب فلسفة العصر القائمة على الجوهر والعرض وجوهر الكمال واحد متى أدركه إنسان وشهد له بذلك صار من العبث مغالته للتفوق عليه إذ هو قد بلغ الكمال ولا شيء وراء الكمال . إلا أن القلب عللا لا يدررها العقل .

ولئن اشتهر هؤلاء الأندلسيون بمواقفهم من المشاركة ومن كان في منزلتهم من الأفاقة : وحظيت هذه الظاهرة عند بعضهم بالدراسة (1) فإنها عند غيرهم لم تنل إلا مجرد الإشارة العابرة في مقدمة كتاب ينشر لأول مرة ويبقى منسيا في أدراج المكتبات . ومن هؤلاء أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي صاحب كتاب « إحكام صنعة الكلام » (2) وغرضنا في هذا البحث التنبيه إلى مواقف الرجل في هذا الكتاب - من المشاركة من حيث هي تمثل مظهرا من العلاقات الأدبية بين المشرق والأندلس . محاولين تنزيلها في محيطها السياسي والثقافي مبرزين أهمية الكتاب في هذا المجال خاصة وفي مجال النقد والبلاغة وتطور الذوق الأدبي بالأندلس عامة . ولنبدا بالتعريف بالمؤلف .

هو من الأدباء الذين كانوا فيما يبدو ضحية الشهرة بين معاصريه . فجل كتب التراجم ذكرته أو ذكرت بعض أفراد أسرته وأشادت بها وبه لكنها أهملت ذكر ولادته ووفاته . كما أن ما لدينا من أخبار في شأنه يبدو متناقضا أحيانا . ونظرا إلى أن ثلاثة من هذه الأسرة قد برزوا في الأدب والسياسة وهم الابن والأب والجد فمن المفيد أن نستعرض الأخبار المميزة بينهم رفعا لكل إلتباس (3) .

(1) ممن اهتم بهذا الموضوع : الشاذلي بويحيى : الحياة الأدبية في عهد بني زيري ص 287 وجعفر ماجد . « العلاقات الأدبية بين قرطبة والفيروان في القرن 4 و 5 للهجرة . حوليات الجامعة التونسية العدد 13 . 1976 ص 103 .

(2) حققه محمد رضوان الداية بالإعتماد على مخطوط وحيد بالمكتبة الوطنية تونس تحت رقم 18298 ، وطبع ببيروت 1966 بدار الثقافة ولم نجد من اشتغل به من الباحثين إلا إحسان عباس في كتابه تاريخ النقد الأدبي عند العرب من ص 509 إلى 512 .

(3) نقتصر في هذا التعريف على بعض الملامح لحياتهم ونحيل على مقدمة محقق الكتاب فيما يتعلق بالتفاصيل . وغرضنا من هذا التعريف هو تصحيح بعض الافتراضات التي ذهب إليها المحقق .

أما الجدّ فهو أبو القاسم محمد بن عبد الغفور . صاحب المعتمد ابن عباد قبل إمارته وإبانها ولقب بندي الوزيرين . توفي شاباً فرثاه المعتمد بمقطوعه أورد منها ابن بسام بيتا (4) . ويؤكد هذا ما نجده في بعض رسائل ابنه أبي محمد من ذكر لأمّه يصفها فيه بالأرملة (5) .

أما الأب فهو الوزير الكاتب أبو محمد عبد الغفور بن محمد بن عبد الغفور الكلاعي (6) يقول في شأنه صاحب الذخيرة : « نشأ بين يدي أبيه من دولة المعتمد بحيث نفيء عليه ظلالها وانشتت تلك السماء قبل أن ينوب مناب سلفه في سرجها » (7) وبعد سقوط دولة بني عباد عرفت الأسرة بعض المضايقات والظروف العسيرة فهو في إحدى رسائله يشكو سوء حاله (8) وفي أخرى يتوجه إلى أحد الأمراء يذكر سوء معاملة الإدارة المرابطية لوالدته الأرملة مما يدل على أن الأسرة قد فقدت بعض ما كانت تنعم به من امتيازات في ظل بني عبّاد (9) لكن أبا محمد تمكّن من الدخول في خدمة المرابطين فصار كاتباً لعلي بن يوسف بن تاشفين بمراكش « ذكره لي اليسع بمصر وقد أدركته سنة 531 وهو كاتب أمير المسلمين ... » (10) .

أمّا الابن فهو أبو القاسم محمد بن عبد الغفور (11) « اعتبط شاباً » حسب ابن سعيد نقلا عن سمط الجمان (12) وأدرك وفاة ابن بسّام حسب إشارة

(4) الذخيرة 2 . 1 ص 323 ط إحسان عباس - إحكام صنة الكلام ص 198 .

(5) الذخيرة 2 . 1 ص 334 - 335 .

(6) نضيف إلى مجموع المصادر التي ذكرها المحقق : المطرب لابن دحية ص 200 يذكره ضمن ترجمة أحد تلاميذه .

(7) الذخيرة 2 . 1 ص 325

(8) الذخيرة 2 . 1 ص 340

(9) الذخيرة 2 . 1 ص 334 - 335 .

(10) خريدة القصر وجريدة العصر 240 7 - المغرب 1 236 .

(11) نضيف إلى ما ورد في مقدمة « الإحكام » من مصادر : الذيل والتكملة لأبي عبد الله محمد الأوسي الأنصاري المراكشي . تحقيق إحسان عباس السقر 6 ص 393 ونلاحظ أن إحسان عباس أورد ضمن تحقيقه للسقر 6 من كتاب « الذيل والتكملة » ترجمة قصيرة وجدها بهامش مخطوط باريس لبعض أبناء هذه الأسرة ظنا منه أنها ترجمة أبي القاسم هذا في حين أن صاحب الترجمة توفي سنة 610 هـ .

(12) المغرب 1 236 .

في كتاب أحكام صنعة الكلام (13) وهذا ما دفع محقق الكتاب إلى القول بأن الرجل ولد في أوائل القرن السادس وتوفي منتصفه دون الاستفادة من كثير من الإشارات التاريخية الواردة في هذا الكتاب . وهي إشارات متصلة بعلاقات المؤلف بمعاصريه من شأنها أن تعين الباحث على التثبت أو على الأقل تحول دون الإفتراضات المستبعدة . ولتتبع أهم هذه الإشارات حسب دلالتها وأهميتها بالنسبة إلى ولادته ووفاته .

أمّا بالنسبة إلى وفاته فإزاء النص الوحيد الذي وردت فيه الإشارة إلى وفاة ابن بسّام - في شيء من الإلتباس - نجد إشارات أخرى تنفي ذلك . وأهمها ما يدل على أن كتاب « الاحكام » ألف قبل وفاة ابن بسّام .

فهو يقول متحدثا عن تحسن علاقة أبيه بابن عبدون بعد أن ساءت :
« فهما الآن - والله الحمد - رضيعا صنفاء وحليفاء إخاء وأليفاء صدق ووفاء » (14) . وابن عبدون توفي سنة 529 (15) . وهو يدعو لأبي أيوب سليمان بن أمية بقوله : « أبقاه الله » (16) مما يدل على أن هذا الشيخ كان أثناء تأليف الكتاب على قيد الحياة وأبو أيوب هذا توفي سنة 522 (17) .

والكتاب يحتوي وثيقة تاريخية هامة حرّرها المؤلف لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وهي نسخة ولاية العهد أوردها المؤلف كنموذج للكتابة الرسمية (18) . وعلي بن تاشفين قد أسند ولاية العهد مرة أولى إلى ابنه

(13) أحكام ص 232 . ومع الملاحظ أن الفقرة فيها بعض الإلتباس حاول المحقق إزالته بالزيادة والحذف .

(14) أحكام ص 149 .

(15) أنظر دائرة المعارف الإسلامية ط 2 فصل ابن عبدون .

(16) أحكام ص 137 .

(17) أنظر ترجمته في الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس 3 ص 467 . المطمح ص 28 المغرب 1 243 .

(18) أحكام ص 226 .

سير سنة 522 وبعد موت ولي العهد هذا أسندها إلى ابنه تاشفين سنة 533 (19) وبمأن الكتاب ألف قبل هذا التاريخ فإننا نرجح أن أبا القاسم هو محرر وثيقة ولاية العهد الأولى . فيكون الكتاب قد ألف بالضبط بعد كتابة هذه الوثيقة وقبل وفاة أبي أيوب سليمان بن أمية المدعو إليه بالبقاء مما يدل على أن أبا أيوب هذا كان أثناء تأليف الكتاب على حالة صحية تستدعي مثل هذا الدعاء .

وفي الكتاب فقرة يتحدث فيها ابن عبد الغفور عن أبي الوليد بن رشد (520) وفيها تلميح - فيما يبدو - إلى محنة هذا الفقيه مع المرابطين يقول فيها : « والفقيه الحافظ ممن أراد الله به خيرا ، فأصاب منه وأخذ عنه من تبين فضله . فتعمي - حسدا عنه . ولا بد لصبح حججه من انبلاج ولبا به من سعة وانفراج لأن من خبا خبيثة رفع له الدهر لواءها . ومن أسر سريرة ألبسه الله رداءها » (20) ففي هذا الكلام من التعاطف مع ابن رشد ما يبعث على الاعتقاد بأن تأليف الكتاب لم يبعد كثيرا في الزمن عن هذه الحادثة . وهي قد وقعت بقرطبة سنة 515 (21) .

فكل هذه الإشارات تنفي أن يكون أبو القاسم قد أدرك وفاة ابن بسام ومما يؤكد ما جاء في الكتاب من إشارات أخرى تعين على تقريب تاريخ ولادته .

نجد في هذا المجال أيضا نصا صريحا في كتاب الأحكام يقول فيه أبو القاسم متحدثا عن بعض أصادقائه : « والوزير أبو بكر (22) من رؤساء العصر في صنعة النظم والنثر وافقت بيني وبينه سنة سبع وخمسمائة /507/ مكتابة

(19) أنظر محمد عبد الله عنان عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص 146 .

(20) أحكام ص 162 .

(21) عنان . المرجع السابق ص 84 .

(22) هو أبو بكر البطلوسي . أنظر الذخيرة 2-1 ص 753 - 773 . وقد ذكر المحقق عدة مصادر حول الرجل .

وجرت بيننا مراسلة ومخاطبة ذكرت منها في ثمرة الأدب ما هو أشهى من الشنب وأحلى من الضرب » (23) فهو في هذا التاريخ أديب يتراسل مع الأدباء ورسائله حرية بالتدوين في كتب الأدب . وعلى كل فهو ينفي قطعاً ما ذهب إليه محقق الكتاب في شأن تاريخ ولادته .

ثم إن بعض مؤلفاته السابقة لكتاب « الإحكام » كتبها وقد أوشك أن يتجاوز طور الشباب حسب اعترافه في ديباجة كتاب « خطبة الإصلاح » (24) معنى هذا أنه كان سنة 522 قد تجاوز طور الشباب أو هو في نهايته . فكم كانت سنه حينئذ ؟ أكثر من إثنين وعشرين سنة .

والرجل كان ينافس ابن عبدون ويتحداه ويستجهن بعض مبتدعائه في فنّ الترسل (25) وكتابته لوثيقة ولاية العهد في هذا التاريخ تثير العجب . فهل يكون دخل في خدمة المرابطين وصار له من المترلة لديهم ما يؤهله لمثل هذه المهمة وسنه حوالي العشرين ودونه من البلغاء الكثير في البلاط المرابطي أمثال أبيه وابن عبدون وغيرهما ... ؟ فهذه إشارات تميل بنا عما ذهب إليه محقق كتاب الإحكام في شأن ولادته ووفاته ويمكن لنا أن نستنتج من كل ما سبق أن الرجل ربما ولد في العقد التاسع من القرن الخامس وتوفي في العقد الثالث من القرن السادس أخذاً بما جاء عن ابن سعيد من أنه اعتبّط شاباً .

والخلاصة أن ابن عبد الغفور من أسرة كان لها شأن مع بني عباد - وهم أندلسيون أصيلون - ومن جيل بقي في نفسه صدى لسقوط ملوك الطوائف وعرف حكم المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين وقسوة فقهاءه في معاملة الأندلسيين وتعصب الجنس الصحراوي عليهم . وذاق مرارة التقهقر إزاء

(23) إحكام ص 137 .

(24) إحكام ص 27 - 28 .

(25) إحكام ص 158 - 159 .

زحف جيوش الإسترداد الأسباني . فكانت الأندلس في هذا الطور تمر بفترة تناقض ما بين وضع سياسي متدهور وازدهار حضاري وثقافي لا مزيد عليه .

أما الوضع السياسي فيتمثل في تقاوم خطر الإسترداد الأسباني وعجز ملوك الطوائف عن رده بأنفسهم فاستنجدوا بالبربر الصحراويين ومن ناحية أخرى فقد انقلب تدخل هؤلاء ونجدتهم للأندلسيين إلى استيلاء فأطاحوا بدول الطوائف وأبرزها دولة بني عباد وبني الألفطس . ونعلم ما جادت به قرائح الشعراء والأدباء في شأن هذين الحادثين وما تولد في نفوس الأندلسيين من شعور بالمرارة والضميم وضياح الوطن وأهله . فقد خرجت السلطة من أيدي الأندلسيين وانتقل هؤلاء من منزلة السيد إلى منزلة المسود واستولى فقهاء المرابطين على الحكم وفقدت النخبة الأندلسية المفكرة في هذا الطور ما كانت تنعم به من امتيازات وحظوة في عهد ملوك الطوائف . وصار نصيبها الحرمان وسوء المعاملة . يظهر هذا من تعاطف ابن عبد الغفور مع ابن رشد الجدّ في محنته التي كانت وليدة توتر العلاقات بين الأندلسيين وقادة المرابطين بقرطبة . وقد ساند ابن رشد أبناء وطنه في موقفهم (26) . كما يظهر الشعور بالحرمان وسوء المعاملة في رسالتين لأبي محمد بن عبد الغفور والد مؤلف « الإحكام » . ففي الأولى (27) يطلب أبو محمد من الأمير المرابطي أن يعفي أمه الأرملة من « مغرم الثغور والدروب » مثل غيرها من النسوة . ويعجب لماذا تفرد هي دون غيرها بالغرامة ؟ . فهذه معاملة مغرضة في نظر أبي محمد وفي الثانية يشكو ما آل إليه أمره من فقر بعد غنى ومن ذلّ بعد عزّة (28) . ومن ناحية أخرى فالبربر الذين استولوا على الحكم بالجزيرة كانت علاقة الأندلسيين بهم في سالف العصور علاقة استعلاء . لكن الأمر قد تحوّل . فهؤلاء الصحراويون

(26) عنان المرجع السابق ص 84 .

(27) الذخيرة 2 - 1 ص 335 .

(28) الذخيرة 2 - 1 ص 340 .

استبدلوا خيامهم في أقاصي الصحراء بقصور الأندلس بعد أن أخرجوا منها أهلها الذين شيدوا عمرانها وجوّدوا حضارتها وفنونها .

ويقابل هذا السقوط السياسي لإزدهار حضاري وثقافي لا سبيل إلى التذكير به في هذا البحث ويكفي أن نبه إلى تبلور الشخصية الأندلسية في الأدب والفكر الأندلسيين وتغير مواقف المشرق منهما فصار علماء الأندلس وأدباؤها ومفكروها يحظون باهتمام المشاركة واعجابهم . فهذا أبو حامد الغزالي يشيد بخصال أبي بكر بن العربي في رسالة وجهها إلى يوسف بن تاشفين (29) وهو يعبر أيضا عن اعجابه ببعض كتب ابن حزم قائلا : « وجدت في أسماء الله تعالى كتابا لأبي محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه (30) . وهذا ابن الصيرفي (ت 550) (31) يفرد الشعر الأندلسي بكتاب عنوانه « المختار من شعر شعراء الأندلس » (32) يقول في مقدمته : « ومن جعل الحق مقصوده والانصاف مطلوبه علم أن الفضائل ليست مخصوصة ببعض الأمكنة ولا مقصورة على قديم الأزمنة . على أن الإقليم الرابع وإن كان أفضل من غيره فذلك لا يوجب سلب الفضيلة مما سواه ولا عدم الحسنة فيما عداه . فكل زمان لا يخلو من أفكار تستنبط وقرائح تؤلف . وهذا لمن تأمله واضح ولمن تدبره جلي . ولقد وقفت للعصرين من شعراء الأندلس على ما لا عُدُر في جحد إحسانه ولا حجة في ترك إستحسانه » (33) .

(29) عنان المرجع السابق 530 .

(30) أنظر نفح الطبيب المقري ط عبد الحميد 2 ص 283 .

(31) يوجد اختلاف في تاريخ وفاته . انظر بركلمان الملحق 1 ص 489 . معجم الأدباء 15 ص 79 - 80 ط . بيروت المشرق .

(32) وصلت إلينا قطعة منه بها 48 صحيفة تحتوي أول الديباجة وفصولا من أواخر الكتاب وهي من رصيد ح - ح عبد الوهاب بدار الكتب الوطنية تونس تحت رقم 18506 . وقد نشرها هلال ناجي بمجلة المورد العراقية المجلد الرابع عدد 4 ، نشر لم يذلل فيه أي جهد سوى النقل . ولا حظ ح عبد الوهاب أن أصل هذا الكتاب يخرج في ست كراريس نحو المائتي صفحة . ألفه صاحبه قبل أن يؤلف ابن بسام الذخيرة . (من تعليق على الورقة الأولى أ من المخطوط) .

(33) المخطوط المذكور . الورقة 1 ب .

عاش هذا الجيل الأندلسي إذن تجربة السقوط السياسي إزاء التفوق الحضاري والثقافي . تناقض ينشأ عنه تمزق نفسي باطني يرهق حساسية الأندلسي ويشير فيه الشعور الوطني إزاء كل مفاضلة بين الأندلس وغيرها . ويولد في نفسه صراعا بين مركب النقص ومركب الغرور يتسرّب إلى أحكامه ومواقفه فإذا هي مشحونة عاطفة لا تعرف الاعتدال . هي عاطفة تتعلق بالوطن والتعصب إلى أهله .

لذلك فرغم تغير موقف المشاركة من الأندلسيين في هذه الفترة فإن نزعة المفاخرة عند الأندلسيين بقيت قائمة على مدى العصور وذلك لهذا العامل التاريخي الذي وصفنا - وغيره - ولسبيين إثنين :

الأول هو أن الثقافة الأندلسية حتى هذا العصر ما زالت تتغذى من المشرق وتكتشف كنوزه فتبهر بها . وكلما ظن الأندلسيون أنهم بلغوا مستوى المشاركة وعارضوا آثارهم وتنافسوا في تقليدها ومضاهاتها وربما تحدّوها ، طلع عليهم المشرق بالجديد المبتكر وبهرهم من جديد بفنونه فأقبلوا عليها من جديد معجبين بها مقلدين إياها راغبين في مضاهاتها يحزّ في نفوسهم الشعور بالنقص وتحرك بواطنهم روااسب الماضي تثيرها معطيات الحاضر الملحة . فالأندلسيون قد كان لهم متنبّيهم وكان لهم كتابهم حتى هذا العصر . لكنهم اكتشفوا عند المشرق جديدا هو أبو العلاء ومن جرى مجراه لا في فنون الشعر ومذاهبه فحسب وإنما في الشر وأساليبه . وهذا ما سنتبينه فيما يلي من هذا البحث .

السبب الثاني : هو أن قضية المفاخرة بين الأندلس والمشرق قديمة تعرض فيها الأندلسيون إلى ألوان من الإستنقاص سواء من قبل المشاركة أو الأفارقة وطبيعة الثقافة العربية أن القديم فيها أكثر تأثيرا من الحديث ، فالقديم أبدا حي في ضمير العربي يتأثر به ويتفاعل وإياه على مدى العصور وهذه خاصية كل ثقافة حية . لكنها عند العرب أبرز لأنّ عنصر القديم عندهم لا يبلى أو يبلى الزّمان . فاستخفاف صاحب بن عباد بكتاب « العقد » في قوله التي جرت

مجرى المثل ، وتحامل ابن حوقل على الأندلسيين من أنهم قوم جاهلون بشؤون الفروسية والحرب (34) — لا سيما في هذا الظرف من تاريخ الأندلس السياسي — ورسالة ابن الريب وغيرها ... كلها وثائق قديمة حاضرة في ذهن الأندلسي تحرك مشاعره وتشير عواطفه كلما قدحها قادح الزمان ناهيك أن رسالة ابن الريب قد أثارت — فيما نعلم — ردود فعل ثلاثة على مرّ العصور (35) .

كل هذه عوامل وأسباب تفسر موقف هذا الجيل — جيل العهد المرابطي — من أدب المشاركة وتمردّه عليهم ولئن اشتهر هذا الموقف عند ابن بسّام في ذخيرته فإننا نجده عند غيره ممن ضاعت مؤلفاتهم أو بقيت مغمورة رغم طرافتها من بينهم صاحب كتاب «إحكام صنعة الكلام» .

أهمية الكتاب :

هي تتمثل فيما يلي :

(1) كثرة المصطلحات البلاغية مع حرص المؤلف على تعريفها وتدقيقها نظريا وتوضيحها بأمثلة . ومن هذه المصطلحات ما هو قديم يشترك فيه المؤلف مع من سبقه ومنها ما يبدو أنه من وضعه ونحته (36) .

(2) تفضيل المؤلف للنثر على الشعر . وهو ما لا نعلمه عند غيره من البلاغيين . والملاحظ أنه لم يركز تفضيله للنثر على أسس فنية لكن موقفه من فني الكتابة حري بالعناية .

(3) هو كتاب تعليمي يبدو فيه صاحبه متأثرا بترعة إبراهيم الحصري في زهر الاداب . تلك التي تعتمد النموذج يقدم لينسج على منواله لكنه يتجاوز

(34) نفح الطيب 1 ص 196 — 197 .

(35) رد عليها أبو المنيرة بن حزم — وقد وجهت إليه — وأبو محمد بن حزم بعد موت ابن الريب وابن سعيد بعد كتابتها بأكثر من قرنين .

(36) أنظر إحسان عباس النقد الأدبي عند العرب ص 511 .

الحصري إلى التحليل والوصف دون أن يطغى ذلك على النموذج ويبدو تأثيره بالحصري في اعتنائه بتقديم نماذج من أهل العصر سواء كانوا من الأندلسيين أو غيرهم . والملاحظ أنه غالباً ما يأتي بالنماذج المشرقية ثم يقابلها بما يضاهيها عند الأندلسيين ومما يؤكد هذا التأثير أن الكاتب ينقل «من زهر الأداب» ويتبنى آراء الحصري .

(4) هو يمثل مرحلة من تطور النثر الفني بالأندلس ظهر فيها تأثير مدرسة أبي العلاء الثوري وهي ظاهرة تبدو واضحة من خلال الكتاب ومن خلال معارضة ابن عبد الغفور لعدد من مؤلفات المعري . وهو موضوع ستعرض إليه في بحثنا .

(5) نجد في الكتاب نماذج مما كان يدور بين الأندلسيين من تنافس في معارضة المشاركة في فنون الترسل ومحاوله مضاهاتهم وما ينشأ عن ذلك بينهم من خصومات أدبية ناتجة عن اختلاف مواقفهم مما عندهم وما عند المشاركة . وهذا الكتاب في حد ذاته نموذج من هذا التنافس . فمن دوافع تأليفه أن الكاتب قد عارض بعض مؤلفات المعري وأن بعض المتحاملين عليه في مجلس السلطان المرابطي كان يتهمه بالتقصير في فن الكتابة وينكر عليه أن يضاهي أبا العلاء (37) .

وهذا الوزير ابن عبدون في البلاط المرابطي يتوخى أسلوباً إبتدعه الهمداني في فن الترسل ويتفنن فيه إلى حد الإغراب ويدعي التفوق على المشاركة بما فيهم « عبد الحميد وأبو الفضل بن العميد وكل كاتب من أهل العصر مجيد » (38) . فيتصدى إليه ابن عبد الغفور ويشعره بطريقة غير مباشرة أن ما أتى به لا إعجاز فيه ولا يستعصي فهمه على الأذهان . وهذا بعض المعاصرين

(37) أنظر أحكام « الصفحات » : 21 - 22 - 24 - 25 - 26 .

(38) أحكام ص 158 .

يكتب لابن عبد الغفور في الموضوع ذاكرة أن شاعر بني الأفطس « قد تعدى درجة إحسانه حتى سقط وأطلق عذبة لسانه حتى تورط » (39) فيجيبه ابن عبد الغفور أن « كبير أبي محمد به إحساني مبهور ولكنها عادة فيمن ازدري بأخيه وأعجب بما يأتيه أن يظهر الله عجزه فيه » (40) فابن عبدون قد تحدى المشاركة وغيرهم من الأندلسيين مما أثار مشاعر ابن عبد الغفور فأظهر له غروره ولكن ليس معنى هذا أن ابن عبد الغفور يزدري الأندلسيين . فاعتزازه بهم شديد ومواقفه من المشاركة لا تخلو من التحدى لهم رغم إعجابه بهم . وذلك لحدة شعوره القومي .

مظاهر الشعور القومي عند المؤلف :

يبدو اعتزاز المؤلف بالأندلس والأندلسيين في نص صريح ردت فيه ابن عبد الغفور على من أظهر سوء الظن بالأندلسيين بحضور المؤلف ولتنصت إليه يسوق الخبر : « وجمعني مع من طرأ إلينا من أهل العلم فاحتاج إلى تسوية بطاقة ، فرماها لمن يسويها له . وذكر أن التحريف الذي فيها من جملة إنحراف أهل الأندلس عن الصواب وأنه لا يعرف ببلده لأنه لا وجه له ولا فائدة . فقلت : أمّا الفائدة - أكرمك الله - فموجودة غير مفقودة وذلك للصيانة لأنّ جوانب الكتاب تسكن بسبب ذلك التحريف عند الطي فيكون ذلك أصون لها من الأنحاء وأحفظ لها من العفاء . وأمّا ما ذكرت من إنحراف أهل الأندلس فقول ليس بالصحيح وكلام يطير مع الريح . وإنهم لأهل اتقان وخط وفهم وضبط » .

ورد الكلاعي تمثل في نقطتين : الأولى هي أن يبين للمدعي أنه أخطأ حيث ظن أنه مصيب وكشف عن جهله حيث ظن المعرفة . فتسوية البطاقة

(39) إحكام ص 159 .

(40) إحكام ص 159 .

بالطريقة الأندلسية فيها فائدة غابت عن المدعي وهي تدل على تميز الأندلسيين وفضلهم . النقطة الثانية كانت دحضاً مباشراً لما إدعاه الخصم وإقراراً بأن للأندلسيين مفاخر ومآثر في مجاز الإتيال والفهم . والكاتب قد حزت في نفسه هذه الحادثة حتى أنه عزم على تصنيف كتاب في هذا الغرض . ولا شك أن هذه الحادثة أثرت أيضاً في تأليف كتاب « الإحكام » وذلك باعتراف الكاتب : « وقد ذكرنا منهم في هذه الرسالة طوائف ونبهنا على مفاخر جمّة ومعارف . وسأستوعب ذكرهم في غير هذا التصنيف وأذكر فيه من علماء وقتنا ما لم يمكنني ذكره في هذا التأليف ، وأنشر من مفاخرهم وأذكر من مآثرهم ، ما يعلم به أن جزيرتنا اليوم هي دار العلم ومسكنه ومقرّ البيان وموطنه ، إن شاء الله تعالى » (41) فهذا الحكم المطلق يكشف عن شدة إعتراز المؤلف بالأندلس والأندلسيين وهو إعتراز يبدو أيضاً في أخذه على الأندلسيين زهدهم في أدبائهم وكتّابهم وهو موقف يشترك فيه ابن عبد الغفور مع الكثير من الأندلسيين ممن احتد عندهم الشعور القومي مثل ابن حزم وابن بسام وغيرهما فهو يقول في أبي مروان الباجي (42) (ت 532) « وقد شهدت له إستنظابات من القرآن لو صدرت إلينا من مثل أبي عمران وأبي بكر بن عبد الرحمان أو غيرهما من فقهاء بغداد وخراسان لكتبت بالذهب وجعل مكانها مع نيرات الشهب . ولكن كيف يرغب عندنا إحسانه وأزهد الناس في عالم جيرانه » (43) .

ويكمن هذا الإعتراز بالأندلسيين في مقابلة المشاركة بمن يضاهيهم من الأندلسيين . « ويحكى أن صاحب كثيراً ما كان يقول كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد وأبو القاسم بن يوسف وأبو إسحاق الصابئي ، ولو شئت لقلت الرابع يعني نفسه (...) وتذكرت بقول صاحب

(41) إحكام ص 50 - 51 .

(42) إنظر بالنسبة إلى ترجمته ابن يشكوال الصلة رقم 778 ص 365 .

(43) إحكام ص 215 .

هذا ما كان يقواه أبو الحسن بن بسام . فكثيرا ما كان يقول : كتاب العصر ورؤساء النثر أربعة : كلاعيان وفهريان أما الكلاعيان فأبو بكر بن القصيرة وأبو محمد بن عبد الغفور وأما الفهريان فأبو القاسم بن الجدد وأبو محمد بن عبدون » (44) .

وهذه المقابلة بين الأسماء كثيرا ما تؤول إلى مقابلة أساليب النثر بالمشرق بما يوازيها عند الأندلسيين كأن الكاتب يريد من وراء ذلك أن يبين أن للأندلسيين باعا في كل فن نثري يظهر بالمشرق .

ويبلغ تعصب الكاتب للأندلسيين إلى حد استنقاص المشاركة بالمقارنة مع الأندلسيين وإبراز تفوق هؤلاء على أولئك . فابن عبد الغفور عمد إلى الموازنة بين كل من الميكالي والهمداني من ناحية وابن عبدون ووالد المؤلف من ناحية ثانية وأبرز إبداعهم في فن الترسل وبعض أساليبه - وهو ما أسماه بـ«المفصل» - ثم استدرك قائلا : « إلا أن أبوي الفضل إستعاننا بأشعار غيرهما وليس كذلك ما أوردناه لأبوي محمد وذكرناه لأنفسنا » (46) فتميز الأندلسيين يتمثل في أنهم يجيدون فني النظم والنثر ويتصرفون فيهما في ترسلهم حسب مقتضيات الحال دون الإحتياج إلى الإقتباس من الغير .

ويظهر تعصب الكاتب للأندلسيين في حجم ما يورده من نماذج للمشاركة والأندلسيين . فالمادة التي يوردها لهؤلاء تفوق حجما ما يورده للمشاركة باستثناء المعري والهمداني في مقاماته . وابن هلال الصّابي . وهو أمر يلفت الإنتباه . فموقف المؤلف من الصّاحب بن عباد وابن العميد والهمداني في ترسله يختلف عن موقفه من أبي العلاء والصّابي . فبينما هو معجب بالمعري ومؤلفاته إلى حد الإفراط نجدته يتحامل على الصّاحب بن عباد وابن العميد

(44) إحكام ص 109 - 110 - 111 .

(45) إحكام ص 144 .

(46) إحكام ص 152 .

ويعيب على الهمذاني بعض الهنات في ترسله . وهذا رغم أنه يعترف بفضل هؤلاء جميعا في مجال البلاغة . ولنتتبع بعض هذه المواقف .

يقول عن ابن العميد : « وأبو الفضل بن العميد فكااتب بليغ مجيد ولكن مع هذا عدل به عن قومه ونودي عليه بأكثر من سومه فقالوا : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد (...) » وقد أثبت من كلامه في وصف رمضان مالا يصدر مثله عن ضعفاء الولدان « ثم يقول بعد أن يورد فقرة من هذه الرسالة : « إلى كثير من هذا الهذيان (...) مما لم أرضه ... » (47) فابن عبد الغفور رغم إعرافه بقيمة ابن العميد يعدل من مبالغة المشاركة في التنويه بشأنه بقولتهم الشهيرة . فيقابل الحسنة بالسيئة ليدحض هذا الحكم المطلق الذي يغذي الشعور بالنقص عند الأندلسيين .

وموقفه من الصاحب بن عباد شبيه بموقفه من ابن العميد فهو من ناحية يبدو متأثرا بالثعالي فيفضله على سائر أفراد هذه المدرسة : « وأما الصاحب بن عباد فهو أحلى هذه الطائفة طبعاً » (48) ومن ناحية ثانية يقول : « وكان الصاحب عفا الله عنه — ممن أوثقته البطالة في حباله الجهالة فكان معظم بضاعته أسجاعا كأسجاع الكهان وقوافي يدفع بها في صدر البرهان » (49) .

والمؤلف في إعجابه بهذين العلمين يبدو متأثرا باراء الثعالبى إلا أن ذلك لم يمنع ابن عبد الغفور من النقد . وهو مظهر من تحرره نسبيا من أحكام المشاركة . هذا التحرر يبدو واضحا في موقف ابن عبد الغفور من الهمذاني . فهو يعيب على الثعالبى تقصيره في شأن صاحب المقامات قائلا : « إنه اقتصر فيه (= كتاب اليتيمة) على ذكره ولم ينه على جلالة قدره وفصاحة نظمه ونثره

(47) إحكام ص 113 - 114 .

(48) إحكام ص 114 .

(49) إحكام ص 118 .

كما فعل أبو منصور عند ذكر غيره . وقد قرّضه أبو إسحاق الحصري ووصفه وأطنب في ذكره وأنصفه فقال ... (50) .

هذا موقف نقدي يدل على تحرّر صاحب « الإحكام » تماما من آراء الثعالبي . وهو تحرّر يعود الفضل فيه إلى أحد أعلام مدرسة القيروان الأدبية (51) .

وبالنسبة إلى الهمداني فهو رغم إعجابه به — لا يتردد في إظهار بعض عيوب الكتابة عنده . فهو يعيب على الهمداني مثلما عاب على ابن عبدون إغرابه في الكتابة : « وقد أغرب الحافظ بمثل هذه الحروف (...) ولكن لا ينحط بذلك أبو الفضل من درجة السبق والفضل » (52) .

وإعجاب ابن عبد الغفور بالهمداني مشوب بكثير من الإعتداد بالنفس . فهو — فيما أورده من نماذج من ترسله — قد عمد إلى تغيير عبارة الهمداني أحيانا كأنما ينبغي بذلك تجويدا والإتيان بأحسن منها . وقد صرح بذلك قائلا : « هذا ما عرفناه من بديع البديع واعتمدناه بالتبديل والتفريع ... » (53) .

ولعل هذه العملية تخفي وراءها موقفا عاما لدى الأندلسيين وهو أنهم يقرون للمشاركة بالإبتكار والسبق لكنهم يتمسكون لأنفسهم بفضل الزيادة والتصرف والتجويد فيما يرد عليهم من المشرق والتفنن فيه . وهذا يتصل بمعنى المعارضة عندهم فهي ليست تقليدا أعمى يعاب عليه صاحبه إنما هي منافسة

(50) إحكام ص 119 - 120 .

(51) يظهر تأثير الحصري في مواطن من الكتاب حيث ينقل عنه دون ذكر اسمه أحيانا . أنظر إحكام ص 44 - 198 .
أما مدرسة القيروان الأدبية فقد أبرز معالمها الشاذلي بويحيى في كتابه « الحياة الأدبية في عهد بني زيري » .

(52) إحكام ص 159 .

(53) إحكام ص 144 . والملاحظ أن محقق الكتاب رغم شرحه لعبارة « التبديل » فقد عمد إلى تغيير نص الكلاعي وإرجاعه إلى أصله في مواضع كثيرة من الكتاب وهذا يخل بمبدأ التحقيق أولا وبفرض المؤلف ثانيا .

صاحب الأثر المعارض قصد إظهار المقدرة على إتقان أسلوب من الأساليب أو طرق موضوع من المواضيع ، وذلك لمضاهاة أو ربما التفوق عليه .

هذا كان موقفه من أبرز رؤساء فن الترسل في القرن الرابع الهجري . وهو موقف يتسم بتعديل ما في أحكام المشاركة من مغالاة في شأن ابن العميد والصاحب وبالإعتراف بقيمة الهمداني الأدبية ورفع الضيم عنه . معنى هذا أن المشاركة كالأندلسيين فيهم المحسن والمقصر ، ومحسنهم ليس معصوما من التقصير . وأن المشاركة قد يغالون في تقدير أدبائهم وقد يقصرون أحيانا .

إلا أن هذا الموقف لا ينطبق على المعري وابن هلال الصابني . وكلاهما كان له شأن لدى الأندلسيين في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس للهجرة . ولنتقصر على النظر في شأن الأندلسيين مع المعري .

لم يكن أبو العلاء مجهولا لدى أهل الأندلس قبل هذه الفترة ، فلقد اتصل به بعضهم وروى عنه بعض أشعاره وآثاره النثرية ، ونقلها إلى الأندلس والمعري على قيد الحياة . لكن الأدب العلائي في انتقاله إلى الأندلس قد مر فيما يبدو بمرحلتين :

الأولى : إهتمت بالطور الأول من أدب المعري وهو طور سقط الزند والثانية : إهتمت بطور اللوزوميات وتصوف المعري .

ففي المرحلة الأولى نقل « سقط الزند » و« خطبة الفصيح » إلى الأندلس ويبدو أن أبا الفضل الدارمي (54) كان من الأوائل الذين رَووا هذا الديوان للأندلسيين أخذه عنه ابن السيد البطليوسي ودرسه وشرحه (55) ونجد تلميذين آخرين من تلاميذ المعري يرويان شعر سقط الزند بالأندلس . الأول

(54) دخل الدارمي الأندلس حوالي سنة 449 . أنظر بويحيى الحياة الأدبية ص 75 .

(55) ابن خير - الفهرسة ص 410 .

هو عبد الدائم بن مرزوق القيرواني يكنى أبا القاسم (56) وهو الشيخ الثاني لابن السيد البطليوسي في هذه المادة والثاني هو أحمد بن الصنديد العراقي (57)

وفي هذه المرحلة أيضا دخل كتاب «خطبة الفصيح» أدخله عثمان ابن الصديقي الصفاقسي حوالي 436 هجرية (58). ولا يبدو أن هذا الكتاب قد لقي إقبالا لدى الأندلسيين حينئذ. إذ لا نجد أثرا للإشتغال به فيما لدينا من مصادر.

أما المرحلة الثانية فهي تتعلق باللوزوميات وسائر مؤلفاته الشعرية وهذه. لم تعرف رواجاً بالأندلس وربما لم تدخلها إلا عن طريق أبي بكر بن العربي (59). وليس معنى هذا أن رواة شعر أبي العلاء - قبل رحلة ابن العربي - لم ينقلوا شيئا من اللوزوميات إلى الأندلس. لكن هذا الديوان صار فيما بعد ضمن برامج التدريس رواية عن ابن العربي. أما سائر مؤلفاته الشعرية فيبدو أنها لم تدخل الأندلس من قبل باستثناء «خطبة الفصيح» الذي أشرنا إليه سالفا (60).

والمهم أن مؤلفات المعري عرفت في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس للهجرة رواجاً كبيراً بالأندلس. ولتقف على نماذج من اشتغال الأندلسيين بها.

أشرنا سابقاً أن ابن السيد البطليوسي (521) كان يشرح سقط الزند ويدرسه وطريقة شرحه تلفت الإنتباه وهي تتمثل في مقارنة شعر المعري بشعر المتنبي خاصة (61). مما يدل على أن الأندلسيين لم يكتشفوا جديداً عند أبي

(56) توفي بطليطة سنة 472. أنظر الجامع في أخبار أبي العلاء محمد سليم الجندي ص 463.

(57) أنظر الفهرسة 410 - الصلة رقم 190 ص 87. معجم الأدباء ط بيروت 3 ص 86 وبغية الوعاة ص 135.

(58) الجامع في أخبار أبي العلاء 466. وأنظر ترجمة الصفدي في «الحياة الأدبية» بويحيى ص 144.

(59) الفهرسة ص 412 مع الملاحظ أن أبا بكر بن العربي قد رجع من رحلته إلى المشرق سنة 493 هـ أنظر. عنان المرجع السابق ص 44.

(60) أنظر قائمة مؤلفات المعري التي دخلت الأندلس في : الفهرسة 412 وإحكام ص 231.

(61) حبيب مطلق. الحركة اللغوية بالأندلس ص 342.

العلاء في طور سقط الزند . فهو شاعر كغيره من فحول الشعراء يقرض الشعر في سائر أغراضه . ولعلهم لم يروا فيه إلا تلميذا للمتنبسي يجري مجراه دون أن يدرك شأوه . يرجح هذا أن الشرح قد أثار خصومة بين ابن السيد وأبي بكر بن العربي لعلها تتعلق بطريقة الشرح (62) وأن ابن عبد الغفور يميل إلى طريقة شرح أبي العلاء في « ضوء السقط » وهي « شرح اللفظ وطرح المعنى » (63) .

ومهما يكن من أمر فهذا يدل على طور جديد في فهم أبي العلاء والإشتغال به ويتضح هذا الطور لدى ابن عبد الغفور الكلاعي فما هو موقفه منه ؟

نلاحظ أنه قدم صورة للمعري تجمع بين الدقة والإيجاز والشمول مما يدل على أنها خلاصة إطلاع المؤلف على جل ما قيل حول شاعر المعرفة . وقد ختمها قائلاً « وحكم نقدة الكلام فيه أنه لم يكن في صنعة النظم والنثر مثله لا قبله ولا بعده إلا ما كان من أبي الطيب في الشعر وحده » (64) .

فأبو العلاء قد طلع على الأندلسيين بالجديد في مجال النثر لا في مجال الشعر لأن المتنبسي قد سبقه في القريض فانفرد هو بدوره بإعجاب الأندلسيين في الأساليب النثرية . وهذا ما يفسر معارضة ابن عبد الغفور لعدد من مؤلفاته النثرية (65) وقد تمت هذه المعارضة في جو من التنافس بين الأندلسيين من أجل إظهار المقدرة على الكتابة الفنية الراقية فكانت مؤلفات أبي العلاء مقياس الكمال المنشود يطلب فلا يدرك (66) .

(62) نجد في الفهرسة ص 419 : « جزء فيه رد على أبي محمد عبد الله بن محمد ابن السيد البطلبيوسي على القاضي أبي بكر بن العربي فيما رده عليه في شرحه لشعر المعري » .

(63) وحكام ص 231 .

(64) إحكام ص 131 .

(65) عارض كتاب « خطبة الفصيح » بخطبة الإصلاح و « الصاهل والشاحج » بالساجعة والغريب و « السجع السلطاني » بإحكام صنعة الكلام . وقال إنه عارض سقط الزند بكتابه « ثمرة الأدب » ولا ندري من أي وجه كانت معارضته له لأن « السقط » ديوان شعر وكتاب « ثمرة الأدب » نثر بناء على وصف المؤلف له . أنظر في كل هذا « إحكام » الصفحات : 25 - 26 - 27 - 28 - 137 - 180 - 189 - 190 .

(66) « أحكام » الصفحات : 24 - 25 - 26 - 30 .

لماذا كانت نظرة الأندلسيين إلى أدب المعري على هذا النحو ؟ وماذا بهرهم فيه ؟

إن أبرز ما تعلق به الأندلسيون في مؤلفات المعري أسلوبه في الشر فقد اعتبروه قمة ما بلغته الأساليب الثرية في عصره لذلك فابن عبد الغفور يورد له نماذج بالنسبة إلى الكثير من الأساليب المتداولة عند غيره من الأدباء مبيناً أن له فيها شأنًا. وعلاوة على ذلك فهو يتميز على غيره في أسلوب أسمائه ابن عبد الغفور « المرصع » : « وممن فاز في هذا الباب بالمتخير للباب أبو العلاء المعري » (67) .

وإلى جانب إعجابه بالأسلوب نجد ابن عبد الغفور يتبنى رأي المعري في الشعر ويتخذ موقفه منه : « وما أعدل قول المعري في خطبة الفصيح وهو أن الشعر إذا جعل مكسباً لم يترك للشاعر حسبا . وإذا كان لغير مكسب حسن في الصفات والنسب » (68) .

لذلك ثار المعري على أغراض الشعر التقليدية ورفضها ابن عبد الغفور « رفض الشعلة للزناد » (69) .

وابن عبد الغفور معجب كذلك بطريقة المعري في شرح الشعر لأنه « شرح اللفظ وترك المعنى للعلة التي قدمنا » وهي « أن كلا يشرح البيت بما يميل إليه طبعه وتحتمله قريحته . ولهذه العلة يعمد الجلة إلى شرح لغات أشعارها دون معانيها » (70) .

ومع كل هذا الإعجاب لا يتردد ابن عبد الغفور في نقد المعري : « وكان أبو العلاء يلتزم في أسجاعه ما لا يلزم كثيرا . ولكنه كان لا يراعي الإعراب ولا تفاق الأعراب في السجع تأثير عظيم » (71) .

(67) إحكام ص 130 .

(68) إحكام ص 38 .

(69) إحكام ص 27 .

(70) إحكام ص 231 .

(71) إحكام ص 244 .

وهكذا يظهر أن ما كان يبهر الأندلسيين في أدب المعري أن مؤلفاته زيادة على كونها مصدرا خصبا للغة فهي تحمّل أسلوبا جديدا في الفن والفكر والحياة . وهذه عناصر تنصهر عنده لتؤلف مدرسة نثرية لم تعرفها الأندلس من قبل .

وهكذا فإن الأدب العلائي في طور سقط الزند قد راج بالأندلس قبل رواج أدبه في طور اللوزوميات فعرفت الأندلس أبا العلاء المقلد قبل أن تعرف أبا العلاء الثائر المتمرد على أغراض الشعر التقليدية ورائدا من رواد الشعر الفلسفي الصوفي . ولم يتم لها اكتشاف الوجه الثاني لأبي العلاء إلا في أواخر القرن الخامس للهجرة . ولما كان هذا الوجه جديدا على الأندلسيين — شكلا ومعنى — كان اعجابهم بأبي العلاء مفرطا (72) . فصارت تأليفه نماذج أدبية تعارض وتمثل مجالا خصبا للشرح والدراسة . وكل ذلك لمضاهاة المشرق في أحدث فنونه الأدبية .

والخلاصة أن ابن عبد الغفور ينتمي إلى جيل كان يحزّ في نفسه أن يرى الأندلس كأنما فقد أبنائها الكفاءة في ميدان السيف فأزيلوا عن قيادتها في حين أنها في مجال القلم « هي دار العلم ومسكنه ومقر البيان وموطنه » .

وهو لذلك يمثل وجهها طريفا من وجوه العلاقات الثقافية بين الأندلس والمشرق في عهد المرابطين تبدو فيه الشخصية الأندلسية حادة الحساسية إزاء كل حكم معياري له مساس بالذاتية الأندلسية من قريب أو من بعيد . ولقد وجدت هذه الفئة الواعية لدى الأندلسيين في مجال الثقافة ما عدمته الأندلس في مجال السياسة وهو التحرر من التبعية للمشرق وإن كان ذلك في حدود يمكن أن تضبط في النقاط التالية :

(72) نلاحظ أن هذا الإعجاب كان صريحا بالنسبة إلى مؤلفاته النثرية دون اللوزوميات . وذلك ربما يعود إلى تأصل النزعة التقليدية في الشعر عند الأندلسيين .

(1) الثورة على المشاركة مع التعلق بأصالة المشرق . فالمشاركة لا ينفردون دون الأندلسيين بهذه الاصالة وإنما هم كهؤلاء في حظهم من البيان .

(2) التحرر من النقد المشرقي الذي غبن الهمذاني والمعري وأحاط الصاحب ابن عباد وابن العميد بهالة من التمجيد والتقديس . فابن عبد الغفور قد اهتدى - رغم تعصبه للأندلسيين ورغم اشتغاله بالشكل أكثر من المضمون - إلى أهمية فن المقامات وإلى النفس الجديد في أسلوب أبي العلاء وفكره .

(3) التحرر من الشعور بالقصور عما يأتي من المشرق . فابن عبد الغفور لا يحجم عن معارضة المعري في عدد من مؤلفاته ولا يتردد عن مخالفته فيما يعرض من رأي . فهو يمثل فئة واعية من الأندلسيين في هذه الفترة ، شديدة الإعتماد بنفسها إلى حدّ الغرور لا تتمالك في إبداء إعجابها بما عند المشرق دون أن يكون ذلك على حساب اعتزازها بما عند الأندلس . فالمعادلة القديمة تحولت في نظر هذه الفئة : المشرق هو الأصل لكن الاصالة ليست مقصورة على المشاركة . وهذا أقصى ما كان يبتغيه الأندلسيون في سالف الدهور .